دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	نحو سياسة تبادلية لعلم النفس
المصدر:	المجلة الدولية للعلوم الاجتماعية
الناشر:	منظمة اليونسكو
المؤلف الرئيسي:	ناندي، أشيس
مؤلفين آخرين:	رضا، أحمد رضا محمد(مترجم)
المجلد/العدد:	مج 14, ع 55
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	1984
الشهر:	يونيو
الصفحات:	62 - 77
رقم MD:	356642
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	EduSearch
مواضيع:	التحليل النفسي، علم النفس السياسي، التنظيم السياسي، علم الاجتماع السياسي، الأحوال الاجتماعية، السياسة الاقتصادية، الصراع السياسي، الاحوال الاقتصادية
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/356642

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

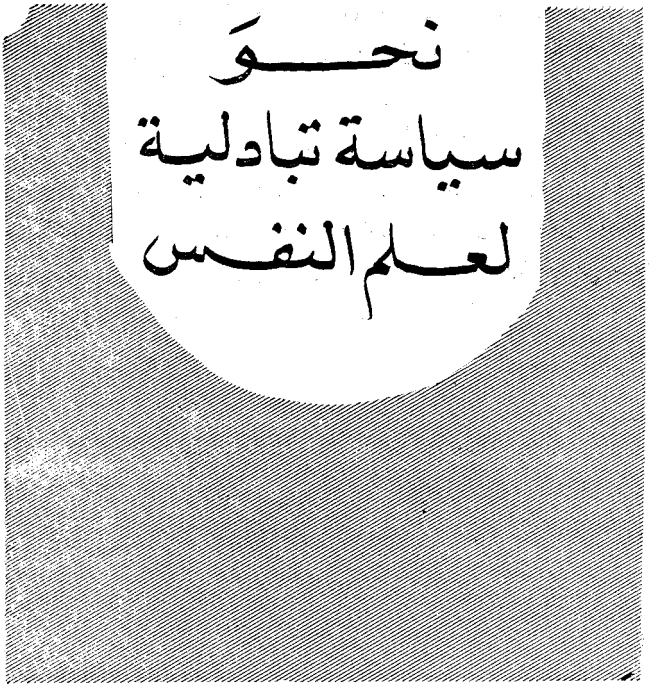

القوة السياسية لعلم النفس الحديث

تعمل التغيرات العلمية بعامة تبعا لحالتين : فتقوم فى الحالة الأولى على بنية المعرفة العلمية نفسها ، وتعتبر عامة شاملة ، ولها بهذه المثابة صفة « الحقيقة » ، والشرعية ، والصلاحية ؛ وفى الحالة الثانية تستهدف الثقافة التى ينتمى اليها العلم ، وبخاصة تطور مفهوم العلم باعتباره نشاطا اجتماعيا ، ومن ثم لا تعتبر تغيرات شاملة ، وهى عرضة للجدل والخلاف ، خارج نطاق العقلانية ، وتعتبر هامة ، ولكن يبدو للخاطر بصورة غامضة أنها تخل بالنظام الذى وضعته المعرفة العلمية ٠

هذا التفرع الثنائى بين العلم نفسه وبين سياقه ظل قائما زمنا طويلا ، ولكن ظهر عليه اليوم علامات التفكك ٠ فأولا كان من أثر بلوغ العلوم الاجتماعية سن الرشد أن شجعها على أن تعارض الصورة التى كانت للعلوم الطبيعية فى نظر أناسى القرن التاسع عشر ٠ ومع أن العلوم الجديدة تنزع الى المحاكاة ، والاختزال ، وتكره صورتها ، فانها حملت مع ذلك الشعلة حينما تركها علم اللاهوت فى القرون الوسطى، وناقشت فكرة أن العلم هو نظام من المعارف العقلية ، فى مأمن من شوائب السياسة والثقافة والأخلاق ٠ ولأول مرة فى تاريخ الانسانية بدأ قطاع من العلم ، وهو

بقلم: أشيس ناندى

مؤلف « العلوم التبادليه » (١٩٨٠) ، و « على حافة علم النفس » (١٩٨٠) ، وهو عضو بمركز « دراسة العلوم النامية » : ٢٩ « راجيور رود » ، دلهى ١١٠٠٥٤ (الهند)

ترجمة: أحمد رضا محمد رضا

ليسانس فى الحقوق من جامعة باريس ودبلوم القانون العام من جامعة القاهرة ، له كثير من الترجمات العلمية والأدبية والثقافية ٠

قطاع العلوم الاجتماعية يدعى أن العلم ليس مشروعا مستقلا ، وعقلانيا ، ومحايدا بالكامل ، لأن له هو أيضا أساطيره ، وسحره ، وطقوسه ، لا فى مجاله الثقافى فحسب ، ولكن أيضا فى جوهره ٠

وهناك ثانيا الفاجعتان الكبريان فى القرن العشرين ، الشبيهتان برقصات الموتى التى يرقص فيها المثلون وعيونهم مفتوحة ، واللتان ارتكبتا بمعاونة التقنيات « المتقدمة » وبخاصة ذلك الاكتشاف العظيم الذى يعتبر أنه حمل العلماء على « الشعور بالخطيئة » ؟ كل ذلك علمنا الشىء الكثير ٠ ثم ان المخاوف التى استثارتها هاتان الفاجعتان من رؤية العلم ينمو ويتقدم بلا حدود قد أضفت معنى خاصا على كتلة المعطيات المكدسة بخصوص الخلق العلمى والوظيفة العلمية ، والتى تنزع الى اثبات أنه لا يوجد فقط « جمهورية للعلم » ولكن أن تلك الجمهورية تندمج فى نظام سياسى وثقافى أكثر اتساعا ٠

(★) استلهم جزءا من هذا المقال نصا لم ينشر بعد لمحاضرة UCG القيت منذ بضع سنوات فى جامعة الله اباد ، وجامعة دلهى ٠ وقد استفدت كثيرا من المناقشات التى دارت عقب هذه المحاضرة ، ومن التعليقات التفصيلية التى قدمها جيرى ديشيكار ، و د٠ ل٠ شيث ، وجيريدهار راتى ٠

ان فقد العلم نقاءه وصفاءه ، باعتباره نظاما للمعارف ، هو الذى يزودنا بقاعدة جديدة لدراسة سياسة علم النفس المعاصر ، وبنوع خاص الفرص المتاحة للعلم ليقطع صلته بالثقافة التى ينتمى اليها فى الوقت الحاضر ، كما أنه يسمح بالنظر فى اطار آخر لعلم الاخلاق السياسية قائم على مفهوم سياسى جديد للعلاقات الموجودة من جهة بين العالم النفسى وأعماله ، ومن جهة أخرى بين العالم النفسى والشخصيات التى يدرسهـــا ٠

« والأزمة » تعبير كثر استخدامه ؛ فكل جيل يظن أنه يجتاز أزمة ، وأنه يواجه مشاكل ورثها دون أن يدرى عن الجيل السابق ، ويعمل بجد ودون هوادة لكى يحقق مصيرا أفضـــل للجيل اللاحق ٠ واذا كان لى رغم ذلك أن أستخدم كلمة « أزمة » لأصف بها الوضع العسير الذى يجد فيه علم النفس الحديث ذاته ، فانى أود أن أعرف هذه الأزمة بأنها معضلة سياسية ٠

ولم يكتسب الانسان السيكولوجى « النفسانى » قوامه الحقيقى الا فى القرن العشرين ؛ وقد عرف هذا القرن من جهة « انتصار علم المداواة » حسبما يقول فيليب ريف Philip Rieff وفهم أكثر فأكثر ماهية « الشعور » ، و « الشعور الكاذب »؟ وتجلى ضعف المفاهيم التقليدية لهذا الشعور الكاذب بصورة تزداد وضوحا ٠ وانا لنجد أنفســـنا ازاء ما أطلق عليـه ، فى مجـال مختلف ، طبيعة الشعور الكاذب المضاعف ٠

ومع ذلك شهدنا فى غضون هذا القرن ذروة عملية ميكنة الطبيعـــة الحيـــة ، والجامدة ، وأخيرا ميكنة الانسان نفسه ٠ هذى العملية بدأت فى الغرب فى القرن السابع عشر ٠ وفى نطاق هذه العملية المزدوجة ، حرم علم النفس الحديث الانسان من أبعاده النفسية فى عصر الانسان النفسانى ، وأشاع مفهوما للانسان ، مفهـــوم فى معظمه ذو شكل آلى ، وبعد ثنائى ، ومضاد للطبيعة الانسانية ٠ بعبارة أخرى ، أن ما أعطاه علم النفس بيد ؛ استرده باليد الأخرى ٠

ويمكن طرح هذه المشكلة بصورة أخرى ٠ ذلك أن عصرنا قد أضفى على علم النفس قوة سياسية جديدة بوضعه فى قلب الحياة الاجتماعية ؛ وأصبح العلم أحـد المعايير المستخدمة لتقدير اسلوبنا فى الحياة أو نقده ، ولكن عصرنا جعلنا أيضا ندرك الكيفية التى كثيرا ما يتحالف بها علم النفس مع قوى القســـوة ، والاستغـــلال ، والاستبداد ، وذلك بقبول التجسيدات اليومية لسـمات الشر فى عصرنا الحـــاضر ، والتصديق عليها ، وخلق أنمـاط جديدة من التدرج الطبقى ، والسيطرة ؛ والنزول بالفرد بجعله موضوعا للبحث والملاحظة حتى يتكيف مع العـــالم الحديث بحـالته الحاضرة ٠ وأؤكد أنه لا يمكن الشروع فى البحث عن آداب جديدة لعلم النفس الا اذا تبين للانسان بوضوح الصلة الموجودة بين مجالين ، أحدهما المجال التجريبى ، والثانى مجال ترابط العلوم ٠ وجعـل الانســان موضــوعا للدراســة ، الأمر الذى يؤيده علم

النفس الحديث يشكل جزءا لا ينجزأ من الوظيفة السياسية لعلم النفس ، باعتباره عاما · و « جمهورية علم النفس » هى امتداد لوظيفة العلم فى نظام المعرفة فى عالمنا هذا ، وهو نظام جائر ، محتكر للاقلية · وسوف أحاول أن أعرف ها هنا متضمنات هذا التفسير للوظيفة السياسية لعلم النفس · هذا التفسير لن يعدل بنفسه الكيفية التى تواجه بها مستقبل هذا العلم · على أن كل طبيب نفسانى يعلم بالبديهة أن كل تفسير ، ولو كان ناقصا له فائدته · فجعل شخص ما أو جماعة ما حساسا لامكانيات الاستبطان قد يكون له بذاته قيمة علاجية وخلاقة · والشىء الذى يصدق مع انسان أو جماعة من الناس قد لا يكون خطأ كليا مع علم من العلوم ·

وقد يسر من مهمتى أن علم النفس علم حديث له تقليد « خفى » استبطانى ، مهما كان التعريف اللاسياسى الذى وضعه حتى الآن مثل هذا التفسير ·

لقد أظهر العلم حقا أنه قادر على استفادة كل أشكال الانفصال بجعلها فروعا ثانوية للعلم والمعرفة ، ولكن العلم أحسن اعدادا من معظم فروع المعرفة من حيث مواجهة الوعى الجديد الذى يهدد الثقافة التى تسيطر على العلم على المستوى العالمى · ومع كل ، فعلم النفس الحديث كان من أوائل العلوم الانسانية ـ وثانى هذه العلوم هو الاقتصاد السياسى الماركسى ـ التى استبعدت دون قصد منها الفصل بين الملاحظ والموضوع الذى يلاحظه ، واعتبرت هذا الازدواج بمثابة وحدة تحليل أساسية · والواقع أن علم النفس الحديث فى مجموعه لم يستغل من فوره هذا الاكتشاف ؛ الا أنه قبل أن تتبنى فيزياء الجزئيات هذا المفهوم التحليلى الذى أصبح شائعا ، وبالتأكيد قبل أن يبدأ علماء الأنثروبولوجيا الذين ينتمون الى المدرسة « البنيوية » فى اعتبار « العقلية البدائية » بمثابة صنو ، أو مرآة ـ وبعبارة أخرى قبل أن يهاجم بشدة · مفهوم الشكل الآلى والنيوتونى (نسبة الى نيوتن) للعالم ـ فان نموذج « التعامل » العلاجى الذى تبناه « علم نفس الأعماق » قد طرح ضمنا على بساط البحث موضوع « القسمة الثنائية » : الذات ـ والموضوع · ولست أفكر ها هنا فى التقاليد السيكولوجية اللاغربية التى لم تبتعد البتة عن المفهوم الذى يقرر أن من يعلم يكون جزءا لا ينجزأ من الموضوع الذى يعلمه ، والعكس بالعكس · وأنا أتكلم هنا عن التحليل النفسى ، وعن بعض مدارس الفكر الأخرى ، من قبيل السيكولوجيا الوجودية ، كما أفسرها من خارج عالم السيكولوجيا الغربية ·

علم النفس ، الحديث والتقليدى :

لكى أبرهن على ما ذكرته آنفا ، أعرض بايجاز مسلمتين مشتركتين فى بعض السيكولوجيات التقليدية ، وفى التقليد العلاجى الذى كان فرويد رائده الأول · المسلمة الأولى ، هى أن الموقف العلاجى هو خلاصة كل تدخل انسانى فى مجال الشخصية ، والمجتمع ، والثقافة · والمعالج بالنسبة الى العلاج ، شبيه بالباحث بالنسبة الى البحث ، والمناضل بالنسبة الى النشاط الاجتماعى · واذا كان الموقف

العلاجي يتضمن أشخاصا وموضوعات ، فان كل موقف ادراكي (وأضف هنا كلمة « رمزي » أو « قياسي » اذا أردت أن تظهر بمظهر علمي ، ولا تبدو بمظهر صوفي) هو خلاصة كل مواقف التفاعل البشري · وعلى ذلك فالمسئولية تكون دائما شاملة لكل من يحاول أن يعرف شيئا · كان من عادة سري أورو بندو Sri ourobind المتصوف الهندي أن يحكي كيف أنه في غضون الحرب الأخيرة قد تدخل بواسطة اليوجا في ستالنجراد ، ومعركة بريطانيا العظمى · ولعلنا نرى في هذا ضربا من جنون العظمة خليقا بقصة مصورة (تنشر في جريدة أو مجلة) أو تأكيدا رمزيا لوحدة الكون العضوية · وعلى مستوى معين لا يختلف « جنون » اورو بندو كثيرا عن نمط العلاقة التي أقامها الكثيرون بين ما كان يقوله جان بول سارتر في أحد مقاهي باريس وبين الأحداث الجارية في فيتنام · هذه المعادلة بين العالم الصغير والعالم الكبير (الكون) هي التي تميز قسما كبيرا من أعمال فرويد في شأن الحضارة الانسانية ، وما فيها من موضوعات السخط ، كما تميز موقعها من الصلة المستمرة بين الصحة العقلية والمرض العقلي · ويدعي بعض المحللين النفسيين الذين يبحثون في « الأنا ويعفي علماء النفس ذوي النزعة الانسانية أن فرويد اعتمد أكثر من اللازم على المظاهر المرضية (الباثولوجية) ، أو الاكلينيكية ليبني نظريته العامة في الحياة النفسية ، وتدل انتقاداتهم على عدم احساسهم بالتأثير التمديني لأعمال فرويد · والباثولوجيا (علم الأمراض) في المجال الاكلينيكي (الطب التطبيقي) لابد أن يعكس بأثولوجيا العالم « السوي » · والتحليل النفسي على أساس مثل هذا الغرض ، وبعكس ما أوصى به فرويد ، أمكن أن يشكل في نظر الكثيرين رؤية اجمالية للعالم ، والفلسفة ·

وانطلاقا من تجربة السيكولوجيا التحليلية ، يمكن تعريف الفرض الثاني الذي هو بذاته نتيجة منطقية للفرض الأول · فمن وجهة نظر « البدائي » يمكن صياغة « احياء » أخلاقيات التحليل النفسي بالكيفية الآتية : الخبير المعالج ؛ انعكاس تحويل (المشاعر) ؛ المريض : تحول (المشاعر) بعبارة أخرى ، هناك تشاكل (تماثل في الشكل) بين المريض والمعالج ، لأن عمليات « التحويل » ، و « الانعكاس » ليست الا عملية واحدة يقسمها عامل خارجي : القدرة المكتسبة « على حل المشكلة » في حالة التحويل « الانعكاسي » عند المحلل ، وامكانية اكتساب هذه القدرة في حالة « التحويل » لدى المريض · والمعالجة حسب هذا النموذج ، هي دائما معالجة الذات نفسها ، واللدونة المغايرة تتضمن أيضا عنصرا لدنا ذاتيا · هناك على ذلك ليس فقط صلة مستمرة بين الصحة والمرض ، ولكن أيضا بين المريض والمعالج · والموقف العلاجي يفسد دائما ـ كما أنه يثري ـ بالتفاعل بين تجارب الايديولوجيات ، والصراعات الداخلية التي يمارسها المشتركون (في العلاج) · فالمعالج ، وهو يساعد المريض على استرداد صحته ، يتورط هو أيضا في طريق شفائه هو نفسه · والمعالج الذي يتم فترة تأهيله ، لا يكون وقتئذ في صحة تامة ، ولا يكون قد حقق كل امكانياته ؛ وليس هدفه أن يجد زبائن له ، حتى ولو كان مهتما بالعلاج « المركز على الزبون » · وربما

يحسن البدء بافتراض أنه فى كل محاولة للتفسير ، يكون المفسر قد توافق مع نفسه بفضل المحاولة نفسها · وحيثما يعبر التفسير عن شخصية المفسر ، فانه يعد فى الوقت نفسه سيرة ذاتية ، وعملية استبطانية ، وتجربة مشتركة أكثر منها عقدا موضوعيا (لا شخصيا) ، أضفى عليها (المفسر) صفة الشخصية اهتماما بالربح الوظيفى ؛ والتفسير يولد بالأحرى نمطا من الحوار ، بدلا من أن يفك رموز لغة شخصية تبعا للتصنيفات الرسمية لمهنة معينة ·

ولهذه الرؤية نتيجة أخرى يمكن استخلاصها من الأعمال الحديثة للمدرسة « المضادة لطب الأمراض النفسية » بخصوص الجنون ، والثقافة · وحيثما يتولى المعالج اعادة تشكيل بيئة المريض ، ويجعل نفسه فى عداد هذه البيئة ، يكون مسئولا ، مسئولية جزئية عن وجود المريض فى حالته المرضية · وتتولد آلام المريض ، وتتجلى عن طريق بيئته التى هى بدورها بنيات يشترك فيه كل من المعالج والمريض · والمسئولية فى هذا المعنى ، يشترك فيها دائما المريض والمعالج ، والموضوع والباحث ، والحضارات التى كانت « مريضة » والحضارات التى من شأنها أن تعتبر غيرها من الحضارات مريضة ، ولابد من علاجها أو نصحها · ونحن اذا تتبعنا هذه المحاجة لا يسعنا أن نفصل هوية المريض من هوية المعالج · واذا كان مرض المريض مرتبطا حسب التعريف بصحة المعالج ، فانه يغدو أيضا مرض المعالج · وفى هذا التفسير لعلم النفس ، لا يوجد منتصر طالما كان هناك ضحايا · والنزول بالشخص بجعله موضوعا للدراسة أمر يشترك فيه كل من المعالج والمريض ، كما أن الصحة نفسها لا تتجزأ ·

وأحاول أن أثبت أن علم النفس قد أهمل الى الآن المضامين الانسانية لبعض تقاليده ، ومضامين التقاليد الحية لعلوم النفس غير الحديثة ، وأنه ولد ثقافة متخصصة نعترف « بالعدوى » ، ولكنها تكرس كل جهودها لصيانة هذه العدوى · وبنفس الكيفية يعترف علم النفس بأن المعمل (المخبر) يختلف عن الحياة الواقعية ؛ ولكنه بدلا من أن يعتبر المعمل تجربة تزيد الأمور ثراء ، فانه يعمل جاهدا على ازالة الفرق بين المعمل والحياة · ومع ذلك ففى هذا عدوى يمكن استغلالها بكيفية خلاقة لاكتشاف السبب فى أن بعض الأشخاص وبعض الثقافات توصف بأنها موضوعات معروفة (أو يمكن أن تكون كذلك) ، فيستطيع آخرون أن يعرفوا أنفسهم بأنهم يملكون المعرفة ؛ كما أن الانسان فى حاجة الى القول بأن ثمة أشخاصا وثقافات مصابة بأمراض عقلية حتى يتسنى لأشخاص آخرين أن يقولوا عن أنفسهم انهم يتمتعون بعقول سليمة · والمحاولة المنهاجية لتجنب هذه المشكلة أفقدت بالتدريج الاخصائى النفسى قدرته على دراسة « تجربة التجربة » (قدرة تجعل علم النفس بمثابة علم المعرفة ، كما يقول ر·د· لينج R.D. Laing) ، وجعلت الأخصائى النفسى عبدا لفكرة أنه يوجد انفساخ مطلق بين الباحث وموضوعه ، وبين المعالج ومرضه ـ وهى فكرة عقيمة من الوجهتين العقلية والخلقية · أكثر من ذلك أنه لما كانت الغالبية العظمى من الباحثين والمعالجين ينتمون الى ثقافات ونظم سياسية معينة ، فان هذا العجز قد ضيق

آفاق علم النفس واستغل بعض خصائص اليوطوبيا (النموذج المثالى) النفسانية السائدة (التى وصفها أبراهام ماسلوف Abraham Maslov بأنها « نفسية طيبة » eupsychie) ، أى ، بعبارة أخرى الخصائص النفسية لذوى الامتياز ، والناجحين ، والأقوياء ٠

الصلة المستمرة بين الملاحظ ، والموضوع الذى يلاحظه :

علينا ، لكى نعزز فكرة أن الاتصالية القائمة بين الملاحظ وما يلاحظه هى الوحدة الأساسية للتحليل النفسى ، ومفهوم المسئولية الشاملة المشتركة (وهى طائفة فرعية من مفهوم وحدة التجربة والعالم ، كما ينظر اليه أتباع القيدية والصوفية) أن نقدم مسلمتين أخريين يتفرع كل منهما من الفرضين السابقين ٠ هاتان المسلمتان الجديدتان، أو على الأقل واحدة منهما ، قد تبدوان على قدر كبير من التفاهة فى أعين القراء الذين يؤمنون بالمفاهيم الأساسية لصوصيولوجيا (علم الاجتماع) جوهرية للمعرفة ، ولكنهما تشكلان فى رأيى أسس كل سيكولوجيا جديرة باسمها ٠

الغرض الأول هو أن السيكولوجيا السياسية لا تختص بعلم ثانوى أو مجال محدود من المعرفة تلتقى فيه السياسة بعلم النفس ، فكل سيكولوجيا سياسية ، وكل نظرية سيكولوجية هى تصريح سياسى ٠ أما الغرض الثانى فهو أن هناك الكثير من السيكولوجيات ، وان الثقافة السيكولوجية السائدة ـ التى تسيطر عليها السيكولوجيا الحديثة ـ تعارض هذا المفهوم للسيكولوجيا ٠

الغرض الأول يحيل الى فكرة هارولد لاسويل Harold Lasswell الذى يرى أن السياسة ليست مجرد نظام اجتماعى فرعى ، ولكنها تعكس أيضا صفة أو شكلا من العلاقة الاجتماعية ٠ هذا الغرض لا يسلم بوجود سيكولوجيا لا سياسة ، ويؤكد أن كل علم لا يعكس فقط مجموعة من القواعد العلمية ، ولكن أيضا مجموعة من الأفضليات السياسية ٠ يعنى هذا بطبيعة الحال القول بأنه فى كل مرة يحاول الانسان أن يقاوم تدخل القيم السياسية المختلفة فى مجال السيكولوجيا ، متذرعا بشعار « الحياد فى موضوع القيم » ، فهو يشجع فى الواقع وظيفة سياسية معينة على حساب وظائفها الأخرى ٠ والعلم الذى يوصف بأنه « مجرد من كل القيم » لا يمكن أن يكون ديموقراطيا الا اذا لم يوجد مع علم محمل عمدا بالقيم ؛ والعلم الذى يحتوى على بعض القيم ، ويعرف كل علم آخر بأنه معيارى ، يملك القدرة (النظرية أو غير النظرية) على أن يعتبر أن العلوم ـ حتى أكثرها ايجابية ـ تنتمى الى أخوة علمية واحدة ٠ وبعد ، فالعلوم المعيارية صراحة بحكم مبادئها لابد أن ترى فى العلوم المجردة من كل القيم تعبيرا غير مباشر لنظام مختلف من القيم (وهذا يثير بالطبع المسألة المتعلقة بمعرفة ما اذا كانت السيكولوجيات غير الحديثة يمكن حقا أن تقارن بالسيكولوجيا الحديثة ، بفكرتها المضادة للديموقراطية عن العلم ، وحاستها التبشيرية ٠ هذه المسألة تحيل الى مسألتين قديمتين : هل يجب منح اللاديموقراطيين حقوقا ديموقراطية؟

هل يمكن أن يكون هناك تعايش بين المعتقدات ، حين يقوم بعضها بالتبشير ، فى حين لا يقوم البعض الآخر بذلك ؟ الجواب واحد هذه المرة : أن من قدر بعض المعتقدات أن تتسامح مع ضروب التعصب حتى تحافظ على هويتها) ٠

والغرض الأول الذى أصبح الآن مألوفا لدى معظم اخصائيى الدلوم الاجتماعية ، لا يستطيع الكثير من علماء النفس أن يصوغوه ٠ وقد تجاهلت السيكولوجيا الحديثة مجموعة الكتب المخصصة لصوصيولوجيا العلم السياسية ٠ ورغم أن السيكولوجيا الحديثة لها تقاليدها الخاصة بالريادة الذاتية ، فان هذا الغرض قد يبدو للكثير من علماء النفس متعارضا مع العقلانية العلمية ٠ حقا ان غالبية علماء النفس يسلمون بأن العلم ينضوى فى نطاق اجتماعى ، ولكنهم فى الواقع العملى يعتبرون أن قطاعات عريضة من علمهم تعمل حسب تعريفها بكيفية مستقلة ؛ ولا يبدو بالمرة أنهم يدركون أن الكثير من المسائل الأخلاقية التى يطرحها علمهم لها طبيعة سياسية ، وأن من بين المهام الرئيسية التى يجب عليهم اليوم أداؤها أن يعدوا سياسة جديدة لعلم النفس ٠

ويقرر الغرض الثانى أن السيكولوجيا التى يقال انها « حديثة » هى سيكولوجيا سلالية ، مثلها مثل السيكولوجيات « البدائية » ، التقليدية ، المحلية ؛ أو الشعبية ، وهى ببساطة شكل آخر من أشكال السيكولوجيا التقليدية ، أطلق بنجاح هجوما سياسيا على سائر تقاليد السيكولوجيا مستعينا بنظرية جديدة للتقدم٠ ومن«اليوطوبيا فما وراء الحرية والكرامة (التى قال بها ب٠ف٠ سكنير B. F. Shinner الى أكثر التفسيرات موضوعية فى التحليل النفسى والى علم النفس ذى التعبيرات السياسية الحادة عند بعض المدارس المتطرفة التى تحاول « توعية » المحرومين ، واعادة صياغة الثقافات التى لا تاريخ لها ، قامت السيكولوجيا الحديثة بمهمة السيكولوجيا السلالية (العرقية) لقسم صغير من العالم ، وحاولت أن تبدو بمظهر السيكولوجيا العالمية على أساس السيادة السياسية والاقتصادية ، والثقافة التى تمارس فى هذا القسم من العالم ؛ وتقدم تعريفا للغة على أنها لهجة مزودة بقوة سياسية واقتصادية وعسكرية ٠ ويمكن اعتبار السيكولوجيا الحديثة بهذا المعنى بمثابة لغة ٠

وأبادر بتوضيح أن هذه الملاحظات لا تشكل دفاعا جديدا لصالح سيكولوجيا تأخذ فى اعتبارها بالأكثر الفروق الثقافية ؛ ولكنه دفاع لصالح أغلبية ثقافية للسيكولوجيا العالمية ، تعايش العديد من السيكولوجيات الشاملة المعدة فى آن واحد من داخل وخارج عالم المعرفة ٠ وفى رأيى أن السيكولوجيا لا يجوز أن تكون مجالا يطبق فيه على مختلف الثقافات النماذج العامة التى تولدها السيكولوجيا الحديثة ، وذلك بأن تجرى عليها (أو لا تجرى) تعديلات نظرية حتى يتسنى مواجهة مجموعة من المعطيات (المضللة) ٠ ويمكن أن نرى فى كل ثقافة تنتمى اليها السيكولوجيا جانبا من رؤى العالم لا يقل شمولا عن السيكولوجيا الحديثة ٠ اذن يصير كل موقف ثقافى مشترك بمثابة همزة الوصل بين سيكولوجيتين سلاليتين على الأقل ـ احداهما غالبا محلية ، راسخة فى أسلوب من الحياة وطنى وضمنية وتستخدم كأداة لنقد

السيكولوجيات المستوردة والثانية مستوردة غالبا وواضحة ، وتستخدم على أحسن الفروض أداة لنقد السيكولوجيات الوطنية · ويتمثل الموضوع فى مواجهة بين سيكولوجيتين شاملتين متنافستين ، متصلتين بثقافة واحدة ، ولكنهما فى أكثر الأحيان مزودتان بقوتين غير متساويتين · وهناك فى هذا المفهوم مكان للسيكولوجيات الحديثة ، حتى فى خارج العالم الحديث ، ولكنه مكان محدود ·

ويمكن صياغة هذه النظرية الأخيرة بكيفية مختلفة بعض الشىء اذا اعتبرنا الفرد مركزا للاهتمام · ومن مزايا اعتبار السيكولوجيا مجموعة من السيكولوجيات السلالية ، امكان مواجهة كل ظاهرة أو عملية سيكولوجية على أنها تجربة يمكن تأويلها بأنها لقاء بين السيكولوجية السلالية للموضوع والسيكولوجية السلالية للمفسر ، واعتبار أن هذا اللقاء يولد نظامه الخاص بالمفاهيم ، و « نموذجا » رمزيا ، يستخدم أو لا يستخدم فى مواقف أخرى · والنظرية السيكولوجية فى هذه الحالة هى وسيط حافز ، تؤدى وظيفة نقدية (بالمعنيين لمصطلح نقدى) فى مجموعة من النماذج التفسيرية · وفى هاتين الصياغتين يسمو هذا المفهوم على التناقض الداخلى عند أولئك الذين يؤكدون استحالة وجود سيكولوجيا متحررة من كل القيم ، ويتهمون فى الوقت نفسه علماء النفس الغربيين بنزعتهم العرقية لأنهم يعبرون عن القيم الغربية · وأؤكد هاهنا أنه يوجد بالفعل نموذجان يتعلقان بالذاتية العرقية فى موضوع السيكولوجيات : فأنت فى أحد هذين النموذجين تحذف من العلم كل الذاتيات (أو النوعيات) العرقية ، وفى النموذج الثانى تتقبلها ، بل وتحابيها ، وتعمل جاهدا على تشجيع الحوار والنقد المتبادل · هناك دائما فى الحالة الثانية تقل هذه الخطورة لأن النية تتجه الى اقامة توازن سياسى بين كل نوعية عرقية وأخرى ، وذلك بانماء ثقافة تتوازن فيها الفروق · وتبعا لنظريتى ، استنفذت منذ الآن الامكانات الخلاقة للمفهوم الأول الخاص بالعرقية فى مجال العلم ، وحان الوقت لاستكشاف الامكانات الخلاقة التى يقدمها المفهوم الثانى للعرقية ·

حدود النزعة العرقية :

لكى نفهم الشىء الذى يجعل من الضرورى هذه العودة الى نموذج تكون فيه النوعيات العرقية مقبولة ، نذكر بسرعة أنماط الوعى السياسى التى كثيرا ما تفيد فى التوقى من المظاهر الجائزة فى علم النفس الحديث ، والتى تقضى على الأعراق فى المجالات الثقافية ·

من أساليب دراسة مشكلة « العدوى » العرقية فى علم النفس الحديث ، ما يتمثل فى نقد خارجى للعلم · وأصحاب مثل هذه الضروب من النقد قد وضعوا أنفسهم بعامة على الساحة الممتازة التى يهيؤها لهم أحد المكونات الايديولوجية الرئيسية للطابع العصرى (وفى أكثر الأحيان العصرية النقدية لبعض الأشكال الراديكالية ، أو العصرية

الامتثالية لبعض المظاهر الليبرالية) · أما الأسلوب الآخر فهو موجه صوب نقد من الداخل ، تصحيح مهنى ذاتى ، وهو حالة السيكولوجيات الثقافية المشـــتركة ذات الطابع الانسانى · هذان المشكلان للنقد قد تبين أنهما ناقصان نقصا كبيرا ·

ففيما يختص بالنمط الأول (من النقد) ، فان غالبية مدارس السيكولوجيـــا الراديكالية ترتبط بقسم أو بآخر من مذهب التقدم · واذا كانت هذه المدارس نشوئية (تؤمن بمذهب النشوء والارتقاء ــ المترجم) فانها لابد تتجاهل الوظيفة السياسية الجوهرية للثقافات ، وتسهم بنبالة فى هياكل السيادة الثقافية والفكرية القائمة ، كما تكافح كثيرا السيطرة الاقتصادية والسياسية لدى الطبقات والمجتمعـــات والدول / الأمم · واذ يحيل انصار هذه الراديكالية الى المستقبل نهضة الانسان والثقـــافة ، ويجعلون المثل العليا بعيدة عن منال المجتمعـات التى لا تاريخ لهـــا ، والتى بقيت بمنأى عن العالم الحديث ، فانهم يمحون حاستهم الكريمة الموجهة لمناطق العالم التى تعانى من استغلال اجتماعى واقتصادى بانتحالهم بغير وجه حق وظيفة غالبة فى الحياة الروحية التى يدعون أنهم ضميرها المتقدم · وهم فضلا عن ذلك ينحون الى المرتبـــة الثانية السيكولوجيات الأخرى الموجودة فى كوكبنا ، حتى فى عالم المعارف المستقبلة ، وفى « يوطوبيات » المستقبل التى يستبعد منها الاستغلال · ومن أجـــل ذلك فهم يضعون كمبدأ الصفة اللاساسية لمضمون علم يمكن أن يعتبر نصه فقط ناقصا · وهم ثانيا يشبهون كل نقد للاسطورتين المركزيتين لعصرنا الحاضر ــ العلم والتاريخ ــ بمؤامرة ثورية مضادة · والفكرة الأساسية لهذا النقد الخارجى التقليدى هى أن الفرد الذى يعيش فى مجتمع ينجرف فى فاجعة تاريخية يواجه فيهـــا الجلادون والضحايا بعضهم بعضا · وتبعا للسيناريو (المخطط) الراديكالى ، فان الجداول المحدودة للشعوب التى لا تاريخ لها لا تعرض سوى نصوص ذات أهمية ثانوية · ان هدم سمعة الناس والمجتمعات مدون فى ميثاق الراديكالية ، وحكمها النهائى القائم على معارف أخصائى « علم التاريخ » لا رجوع فيه ؛ ومفهوم الطغيان الشرقى هو التصوير المتناهى لأساليبها التحليلية المتميزة ·

وعلى العكس من ذلك ، تبين فى بعض أشكال الليبرالية أن مفـــاهيم الفردية ، والعقود والمنافسة فى حالة يرثى لها حين تقترن بالرؤية التكنولوجية لعالم الفكر العلمى فى القرن التاسع عشر · وتبعا لهذا المفهوم، فان كل عنصر من عناصر المعرفة السيكولوجية ليس الا سلعة استهلاكية يمكن نقلها وشراؤها من لدن العالم النفسانى ، واستخدامها كدواء مسـجل ضد الوحدة ، وانعدام الفعالية ؛ والملل والحزن والعنف ، والبناء ــ أى كل ما يدل على عدم التكيف مع التيارات الكبرى فى الوعى الحديث · يمكن عندئذ تجنب اضفاء الطابع السياسى على المعرفة اذا جعلت الاهمية للواقع المحسوس ، ولحل المشكلات الصغيرة فى الحياة الواقعية ، بدلا من متابعة سراب سـيكولوجيا شاملة · هذه الميتافيزيقا المضادر لا تصدر عن برجماتية بحتة ، فهى على العكس من ذلك تثبط بصورة منهاجية كل استفهام عن الخصائص الأساسية للسيكولوجيا الحديثة ، وتؤيد

الحفاظ على الحالة الحاضرة بوساطة سيكولوجيا تطبيقية ، ومتداولة ، وقائمة على رؤية آلية للأفراد والجماعات والثقافات · وتجلت هذه الليبرالية بنوع خاص فى شكل نظرية للتحديث (أو التعصير) فى سبيلها الى الاختفاء البطىء والتحول الى سيكولوجيا اجتماعية · وقد أتاحت الأعمال التجريبية التى تجرى فى العالم كله لهذه النظرية أن تجعل الكثير من فروعها نسبية ، ولكنها جعلت قيمة مطلقة للأهداف الاجتماعية « للأنوار » (العلوم والمعارف) التى تعتبر بمثابة الرؤية الانسانية الأكثر كمالا للمجتمع · لقد انتهت قصة « اليوطوبيات » كما لابد تنتهى قصة الرؤى الأخرى لحضارات المستقبل · وهكذا يكون مبدأ النسبية الثقافية جزءا لا يتجزأ من مجال يتعمق فيه المقال السيكولوجى الحديث ، لا بمعونة رؤى جديدة للعالم ، ولكن بفضل معطيات ثقافية مشتركة · وتنظم هذه المعطيات بعد ذلك تبعا لتدرج نظم قيمية ، وتعتبر فى نطاق رؤية نشوئية · وهكذا تصبح المقاومات السيكولوجية الموجهة ضد التطور الاقتصادى ، والعلم الحديث ، والتكنولوجيا المتقدمة ، والاشتراك فى التنظيمات السياسية الغربية ، ونظام الدول / الأمم ، وحتى مقاومة ازدهار وعى ثورى محترم ، تصبح موضوعات قابلة للبحث · ثم انه من المسلم به ضمنا أنه ينبغى لعلماء النفس غير الغربيين أن ينتجوا معطيات تنتمى الى مجتمعهم ، ويؤلفوا نظريات صغرى تتعلق به ؛ فى حين يتكفل علماء النفس فى العالم الغربى باعداد نظريات تطبق ليس فقط على قطاعهم الخاص ، ولكن أيضا على العالم بأسره والعالم النفسانى الحديث ، وقد وقع فى شباك هذه القواعد الأخلاقية ، صار عديم الاحساس بالقهر الذى تمارسه النماذج السلالية ذات الاتجاه الواحد ، والتطور الزمنى اللغوى الاجتماعى ، والتقدم العلمى ، كما جهل القهر الذى مارسته فكرة التاريخ ، وما ترتب عليها فى شأن الثقافات التى كانت الضحايا الرئيسية للتاريخ « العلمى » الذى ترتب على وساطته أن عددا صغيرا من المجتمعات المتمتعة بالامتياز يعمل على القضاء على كل الأشكال المرغوبة فى التنظيم الاجتماعى خلاف تنظيمها · ولا ينشأ عن الدراسات السيكولوجية المتعلقة بالتحيز العرقى أى وعى ، بسبب أن التحيز يمكن أن يلحق ليس فقط بالثقافة القومية ولكن أيضا بالتاريخ القومى · وليس من شك فى أن من طبيعة الانسان أن يستخدم ثقافة الشعوب الأجنبية أو تاريخها ليجعل منها « يوطوبيات » مضادة · وبسبب أو لآخر لا يهتم العالم النفسى الحديث مطلقا بالصراع فى سبيل البقاء الثقافى « للشخوص » الأبدية لعلم النفس ، أولئك الذين يحاولون التحرر من سيطرة التاريخ والعلم الحديثين ، كما أنه لا يدرك أن هذا الصراع هو أيضا صراع عدد من السيكولوجيات التقليدية والشعبية ، أى فى الحقيقة « السيكولوجيا » بكل تراثها العرقى ·

وهناك أخيرا سمة مشتركة بين المفاهيم الماركسية والليبرالية التقليدية لعلم النفس · ولم يميز علم النفس الحديث بوضوح بين العلم والتكنولوجيا ، كما أنه لم يضف مشروعية أساسية على العلم باعتباره نقدا فلسفيا للعالم المادى والحياة

اليومية · وترجع الفلسفة العلمية لدى العالم النفسى أساسا الى مذهب تكنولوجى مفرط فى التبسيط · والعالم النفسى ، على غرار المتخصصين فى العلوم الرياضية والطبيعية اللاحقين لجاليليو يحصر بحثه بشأن المشروعية فى نظريات العمل ، لا فى نظريات الموجود · وقد وثق هذا الوضع صلته بالثقافة المسيطرة على العلم ، وبأهداف من قبيل المنافسة ، والنجاح ، والانتاجية ، والتحكم فى الانسان والطبيعة · وقد أصبح علم النفس بالتدريج حصن البرجاتية غير النقدية ·

وهكذا فان العالم النفسى كثيرا ما سعى الى التعرف على نفسية أولئك الذين لم يتلقوا ثقافة كافية ، وصاروا ضحايا التخلف الاقتصادى ، أو المحرومين من السلطة السياسية ، ولكنه قلما تساءل عن موضوعات التربية والتعليم ، والذكاء ، والتطور ، والنضج ، والمصلحة القومية · لقد ابتاع مفاهيمه بالجملة من سائر فروع العلوم الاجتماعية ، وحاول أن يصهرها فى بنيان تنظيمى للضمير الانسانى · وربما بدت هذه الملاحظات كأنها تنتقد بغير وجه حق « العلم السوى » · ولكن علينا الا ننسى أن فى العالم كله تعمل مئات من أقسام السيكولوجيا على أن تتمشى مع هذه التفسيرات ، فى حين يكتشف العاملون بها ، فى الصفات السيكولوجية بين المتغيرات المدروسة بلا روح نقدية ، من قبيل التطور ، والتربية ، والتنظيم ، والتحكم فى حركة السكان ؛ وجود أشكال من العنف ، وهدم ثقافات الشعوب ، والاستغلال المنظم · ولننظر مثلا فى الخلط الذى يحدث كثيرا بين الأسباب والنتائج فى السيكولوجيا الاجتماعية · ولما كان التخلف الاقتصادى ملازما فى الغالب لمناطق لا غربية ، فان غالبية البحوث المتعلقة بالمظاهر النفسية للنمو الاقتصادى فى الخمسينات والستينات لم تنته الا الى التأكيد بصدق على أن هذا التفاوت هو نتيجة الطبيعة اللاغربية للأفراد والثقافات · وبالأضافة الى أن هذا التبرير هو من قبيل السفسطة فانه يتغاضى عن حقيقة أن «التخلف» كان غالبا عكس حالة «التقدم» ، وان القاعدة البنوية لهذا التقدم لم يكن فى الوسع اقامتها اذا لم تعرف مناطق شاسعة من الكوكب هذا التفاوت · هذه الدراسات لا تأخذ فى اعتبارها أن قسما كبيرا من الجنس البشرى قد استطاع أن يقاوم بعناد ضغط نظام اقتصادى يعرف طبيعته الشمولية الطاغية ·

فى رأيى كذلك أن من بين نتائج الجدل بشأن « الحاصل الذكائى » ، والذى توقف الآن ، أنه لم يكن من المحتمل أن تكون هناك مشكلة لو أن سيريل بيرت Cyril Burt كان باحثا أمينا · وقد بلغت اختبارات الذكاء من قبل الغاية التى يفترض أنها تستهدفها ، وهى أن تمحو المفاهيم التقليدية للعقل ، وتجعل من الذكاء أداة ورعاية للوضع الاجتماعى الاقتصادى ، وأن تفرض على الكافة الفكرة التى تقول بأن « الذكاء هو ما يقاس بواسطة اختبارات الذكاء » · هذه الاختبارات لابد بالضرورة أن تؤدى الى نتائج مستقلة عن أخلاق الباحثين أنفسهم ، مثل سير سيريل (٢) ·

---

(٢) هيئة التحرير : فى خصوص الجدل الذى أثاره سيريل بيرت ، أنظر : بيتر ويليموت Peter will moth « التكامل فى العلوم الاجتماعية : النتائج المترتبة على فضيحة » : المجلة الدولية للعلوم الاجتماعية ، المجلد التاسع والعشرون (١٩٧٧) رقم ٢ ، صفحات ٣٥٩ ـ ٣٦٢ ·

وفكرة استخدام العالم النفسانى الذكاء لا تمنع من حقيقة أن الضعاف والمحرومين يحصلون على نتائج سيئة تبعا للمعايير التى يحددها الأقوياء والأثرياء · ولا يمكن أن يكون الأمر غير ذلك اذا وضعت مقاييسك وبررتها لتقدر مواقفك وأساليبك المفضلة ، رجوعك الى النتائج المستخلصة فى نطاق الهياكل التى أقمتها أو حققتها بنفسك ، وقمت بعد ذلك باجراء تقييم لسائر الناس على أساس هذه المقاييس · ولكن لا ينبغى عندئذ أن تدهش من أن هذه الممارسة لا تنتمى فى نظر الناس الى البحث العلمى بقدر ما تنتمى الى التحايل · أما منهج النقد النفسى (الباطنى) فان له مدى مختلفا ، وقد ذكرته بكيفية غير مباشرة فى مناسبة مذهب النسبية الثقافية غير النقدية الذى يشكل الأساس الأخلاقى لسيكولوجية الثقافات المشتركة التقليدية ، وكذا السيكولوجيات الانسانية · وأضيف ملاحظة أخيرة : ذلك أن النسبية كانت أسلوبا لمقاومة مذهب العمومية المطلقة العشوائية الذى يعكس الثقافات النوعية التى نمت العلوم الاجتماعية فى نطاقها ، وكان المفروض أنها توازن الاتجاه الذى اتخذه الجيل الأول من أخصائى العلوم الاجتماعية ، والذى كان يتشكل غالبا من قدامى المبشرين ، وأعضاء البيروقراطية الاستعمارية · غير أن الأساليب السياسية لها بنية أكثر مرونة من بينة الابتكارات التصورية للعلوم الاجتماعية · وسرعان ما تبنى مذهب الذاتية (أو الخصوصية) فكرة النسبية الثقافية التى كان المفروض أنه يقاومها · وغالبية السيكولوجيات الثقافية المشتركة والانسانية ـ حتى فى أكثر أشكالها اتقانا وكما لا ـ تعتبر السيكولوجيا الحديثة بمثابة مستودع ثقافى شامل للمعرفة ، فى حين تمثل السيكولوجيات الأخرى طائفة العاجزين (أو المنحرفين) ، وتحتاج الى التفسير حتى تنضم الى عالم السيكولوجيا الحديثة · وهكذا تصبح السيكولوجيات الأخرى حسب هذا التعريف الوعاء المشكوك فيه للمعلومات والمعارف ، الجيدة والرديئة ، فتمتص السيكولوجيا الحديثة المعارف والمعلومات الجيدة ، وتستبعد الرديئة · وليس من شأن سيكولوجيا الثقافات أو السيكولوجيا الانسانية ، حتى مع أحسن الفروض أن تعطى سائر السيكولوجيات الحق فى أن تنضم اليها فيما تعتبره أحسن جزء فيها ، وأن ترفض ما ترى أنه غير مقبول ·

وباعتبار السيكولجيات غير الحديثة بمثابة أوعية للمعارف والمعطيات المنعزلة ، فانه يفترض أن هذه المعارف والمعطيات يمكن استخدامها لايضاح أو تعزيز أو تعديل النظريات الصغيرة فى السيكولوجيا الحديثة ؛ وتبقى النماذج والثقافة الأساسية للسيكولوجيا الحديثة سليمة بالكامل ، وتكيف فى الواقع وبعناية مع واقع تجريبى جديد · والنظريات الصغيرة فى السيكولوجيا الحديثة ، وليس القواعد الأساسية فيها هى التى تتطور على المدى البعيد · ومع ذلك ، وكما أشرت من قبل ، فان ذاتية السيكولوجيا الحديثة لا تتعلق فقط بالمعطيات أو النظريات المختلفة التى تكونها ، ولكن أيضا بمسلماتها الخاصة بطبيعة العلم ، وبالوضع الانسانى الذى هو أصل المعرفة العلمية ·

نقص السيكولوجيات يكشف عن عيوب المجتمعات :

لا يجوز أن نعتبر بمثابة هجوم مباشر على السيكولوجيا ما ليس فى الواقع سوى تفكير بسيط فى الصلة المتبادلة بين عيوب المجتمعات وبين أوجه النقص فى السيكولوجيات ، حتى ولو كانت هذه السيكولوجيات « راديكالية » صراحة ، أو مرتبطة بمختلف الثقافات ٠

هذا النقص نجده ليس فقط على مستوى المعطيات أو النظريات ، ولكن أيضا على مستوى فكرة السيكولوجيا ذاتها باعتبارها علما من العلوم ٠ هذا النقد نفسه الموجه للسيكولوجيا ، والقائم على مفهوم آخر للمعرفة ، نقد ناقص لأنه صادر عن ثقافة أخرى ناقصة ٠ أقول فقط فى صالحه أنه لا يعتبر أية سيكولوجيا بمثابة ختام لعملية نظورية علمية ، ولكنه يرى فى كل سيكولوجيا عمل مجموعة من الثقافات تدأب على فهم النفس البشرية ودراستها فى جو من التسامح والنقد المتبادلين ٠ وانى آمل فقط أن هذا المفهوم ــ وطبيعته سياسية صريحة ــ يتيح بصورة غير مباشرة على الأقل معالجة مشكلة لم تدرسها النسبية الثقافية مطلقا دراسة جدية : كيف يمكن الحفاظ على تقليد نقدى فى الثقافة التى تنتمى اليها السيكولوجيا دون انكار النقد الثقافى والمعيارى ؟

ولابد أن يكون واضحا من الآن أننى لا أرى مستقبل السيكولوجيا على أنها علم فقير فى النماذج ، الأمر الذى يعتبره توماس كون Tomas Kuhn دليلا على أنها علم بلغ درجة النضج ، بل انى على العكس من ذلك أبتهج من وفرة النماذج التى تميز السيكولوجيا وتكشف عن قوتها ورسوخها فى العديد من النظم الفلسفية ٠ وفى نظرى أن للسيكولوجيا وظيفة رئيسية تؤديها مستقبلا فى الحوار بين الفلسفات ، ورؤى العالم ، والحضارات ٠ ولا أظن أن العلم سوف يزيد من اختيارات الانسان بتحسين التقنيات السيكولوجية ، أو السيطرة على البيئة الانسانية ، بل أعتقد على العكس من ذلك أنه سوف يوسع مجال اختياراته بفضل وعى أعمق بذاته ، واكتسابه خبرات اجتماعية كثيرة التنوع ٠

لذلك فمن واجب العالم النفسانى فى الوقت الحاضر ليس فقط أن يوسع مجال عمله العلمى من حيث الزمان والمكان ، ولكن عليه أيضا أن يبحث فى المعانى والتجارب والقيم المرتبطة بمختلف النظم السيكولوجية ٠ فاذا لم تأخذ السيكولوجيا الحديثة فى اعتبارها هذا المظهر الثانى لمهمتها فانها سوف تنجح فقط فى توجيه دراستها الى مجالات ثقافية جديدة ، وعلى فترات أطول ، الأمر الذى يزيد من حدية تقاليد أخرى من تقاليد السيكولوجيا ٠ والاعتراف بهذه المهمة المزدوجة هو الشرط اللازم لتوحيد هذا العلم ٠

والبديل الذى أقترحه يمكن أيضا أن يضفى مكانة جديدة على فروع السيكولوجيا التى تهتم بالمجتمع ومن الوجهة التقليدية ، تقبلت السيكولوجيا الاجتماعية بخضوع

مصطلحات علوم أخرى حديثة ؛ وكثيرا ما أعدت بالتقريب متغيرات تبعية « خـــارج النطاق السيكولوجى » لتقوم بعد ذلك بدراسة الارتباطات السيكولوجية المتبـــادلة للمتغيرات · من ذلك أنه فى أعمال اليكس اينكلس Alex inkeles ومعاونيه ، يغدو قبول بيئة حضرية صناعية ، وعمل تعاقدى عـام لا شخصى معيـــارا للنضج والتقدم ؛ ومتوسط دخل الفرد من السكان أو استهلاكه الكهرباء أو الصلب يكون هو المقياس الرئيسى للنمو الاقتصـــادى لأمة ما ، فى بحوث دافيـد ك · ماك كليلاند David - C.A. Cleland فى خصوص الديناميكية النفسية للنجاح ؛ والنتـــائج المدرسية أو الجامعية المتحصلة فى نطاق نظام تربوى عرضة للمناقشة تعتبر عند جيل كامل من الأخصائيين فى الاختبارات التقديرية لحاصل الذكاء أنها تؤيد قيمة مقاييس الذكاء ؛ ونظام يشمل حزبين سياسيين أو ديموقراطية برلمانية من النمط البريطانى يغدو أى منهما معيارا للتقدم السياسى والدقرطة (نشر الديموقراطية) فى نظر جيل آخر من الأخصائيين فى السيكولوجيا السياسية · ويقال لنا ان فى هذا تتمثـــل النزعة التصرفية (نزعة بعض علماء النفس الأمريكيين الى اعتبار علم النفس دراسة لتصرفات السلوك مهملين معطيات الشعور غير الظاهرة ـ المترجم ، من لاروس) ·

وتبعا لهذا القبول المطلق للفئات التى نستخدمها علوم اجتماعية أخرى ، وجدت السيكولوجيا نفسها مرتبطة ببعض المفاهيم الآكثر تخلفا فى الفلسفـــة الســياسية والاجتماعية ؛ وأصبحت علما للنفس ، لا يثبط فقط كل جدل فى المشاكل من قبيل معنى النمو ، والتطور ، والذكاء ، والديموقراطية ، والصحة ؛ ولكنه فضلا عن ذلك يجهل القرائن السيكولوجية التى تضفى على هذه المتغيرات قيمـــة الصفات الثمينة وتعطيها معنى ·

مرة أخرى أؤكد أن صـــحة الفرد وصحة المجتمع أمران لا ينفصلان · ومدارس السيكولوجيا السائدة ، بتعاونها فى محو الحلول خلاف تلك التى اقترحها المجتمـــع الغربى اللاحق لعصر « الأنوار » ، واشتراكها فى هدم استقلال الأجانب (الهمج) وحريتهم ، وكرامتهم ، غاصت عميقا فى حمأة ثقافة زاجرة ، منظمة ، وقادرة على المنافسة بدرجة مفرطة ، وطقوسية ، ومعادية للتـــأمل الاستبطانى · وفى هـــذه الظروف ، ما يحدث لك هو ثمن الخطيئة ، كما يقول ايريس مردوخ Ires Mardock فى شرحه لأفلاطون · وقد استحوذ علماء النفس على حكومة الفنيين ، وبعض الأشكال المضادة للسيكولوجيا ، وذلك لضمهـــا لشرعتهم ، واستقروا فى نهج حـرفى ضيق ومجزأ ، وجعلوا من علمهم صناعة · وتشيعهم للعلم « السوى » قد هـــدم أغلب الفرص الكفيلة بظهور علم « ثورى » · هذا هو المنطق الداخلى لكل ســـيطرة وكل محاولة للفوز بالاســتقلال على حســاب اســتغلال الغير · ولا عجب فى أن المشاكل الأونطولوجية (المختصة بعلم الكائن ـ المترجم) للسيكولوجيا الحديثة تتمشى تماما مع المنهاج الذى اجتهد به هذا العلم أن يجعل سائر تقاليد السيكولوجيا ذات أهمية

ثانوية ، وهى التقاليد التى وصفها بأنها غير نفعية ، وفلسفية مفرطة ، ولا تقديرية ؛ وغير منتجـــة ٠

ولا ينتهى أبدا البحث عن سيكولوجيا انسانية ؛ والسيكولوجيا التى يرى جيل من الأجيال أنها صحيحة من الوجهة الأخلاقية لم قد تبدو للجيـــل اللاحق حيله تتغيا اخفاء أشكال دقيقة من السيطرة والقهر والمعاناة المنظمة ٠ ويمكن أن نرى فى ذلـك دلالة على تقلب الطبيعة البشرية ، وضعف السيكولوجيا ، أو برهانا على قابلية المجتمع للانفعال والتأثر ، وقدرة السيكولوجيا على البقاء باعتبارها علما من علوم الاجتمـــاع والفلسفة ٠ وانى أفضل هذا التفسير الثانى ٠ وما يجعل لهذا العلم قوة ، هو أن على كل جيل من علماء النفس أن يكشف مـداه وحدوده فى نطـــاق « اليوطوبيات » الصريحة والضمنية فى عصرهم ٠ وبعد ، فان موضـوع دراستهم هـــو الضمير الانسانى ٠ ثم ان المسائل ذات الطبيعة الأخلاقية التى عرضتها ها هنا لابد أن تكون قد اختفت من الآن حتى بضع سنوات قادمة ٠ وهذا لا يعنى أن المسائل السياسية المتعلقة بالسيكولوجية سوف تختفى هى أيضا ٠ معنى هذا أن وعيا نقديا جديدا سوف يبحث من أجل الفلسفة عن مجموعة جديدة من القواعد ، وينزع قنـــاع هذا الحظر السيكولوجى العرقى ٠ ولست قلقا البتة من مثل هذا التطور ٠ وعلى عكس التقاليد النقدية الحديثة لفيكو ، وهبردر ، ونيتشة ، وماركس ؛ وفرويد ؛ مازالت التقاليد النقدية القديمة لما ديناميكا ، والأوينشاد مفتوحة لنقد لا حدود له ، « لنقد النقد » ٠